المحاضرة الخامسة: الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى

1- دخول الأدارسة للمغرب وتأسيس دولتهم:

الأدارسة نسبة إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم أجمعين) وقد فر إدريس الأوَّل من الجيش العباسي بالمشرق على إثر هزيمة العلويّين في معركة فخ يوم السبت الثامن من شهر ذي الحجة سنة 169هـ/10 جوان 786م ودخل إلى المغرب الإسلامي، وهناك روايتين لكيفية دخوله إلى بلاد المغرب والأقرب منها إلى الحقيقة أنَّه دخل رفقة مولاه راشد عن طريق مصر حيث ساعده رجلًا يدعى واضح مولى صالح بن المنصور ويُعرف "بالمسكين" وكان هذا الرجل يميل إلى العلويّين حيث أمنَّ له الطريق للوصول إلى القيروان ثمَّ إلى مدينة تلمسان وارتحل بعدها إدريس إلى طنجة ونزل في مدينة وليلي سنة 172هـ/789م وكانت هذه المدينة منطلقًا لنجاح دعوته وتأسيس دولته.

وقد ساعدته قبيلة أوربة الأمازيغية في ذلك عندما بايعوه بالإمامة في شهر رمضان سنة 172هـ/فيفري 789م ثمَّ توالت القبائل الأخرى في مبايعته لحبهم لآهل البيت.

وفي حدود سنة 192هـ/808م في عهد إدريس الثَّاني تمَّ بناء مدينة فاس لتصبح عاصمة للدَّولة الإدريسيَّة، وقد انتقل إليها النَّاس وعمروها وشيَّدوا مبانيها، وقد شملت دولتهم شمال المغرب الأقصى وبعض المدن من المغرب الأوسط كتلمسان وما جاورها.

2- نظام الحكم والمذهب:

اتبعت الدَّولة الإدريسيَّة النِّظام الوراثي حيث حكمها أربعة عشر حاكمًا كلهم من نسل إدريس الأوَّل، ويلاحظ على هذه الدَّولة أنَّها لم تنشأ على يد الدعاة، ولا كان لها تنظيم سري ولا حمل السلاح كما هو الحال بالنَّسبة للصفريَّة والإباضية والعُبيديّين (الفاطميّين) ، وبالنسبة للمذهب المتبع فالدَّولة الإدريسيَّة لم تكن شيعية (رافضية) وإنَّما كانت تجمع بين التَّسنن والاعتزال في بداياتها الأولى، ثمَّ طغى المذهب السني المالكي عليها فيما بعد، وقد كان إدريس الأوَّل يقول نحن أحق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه وذلك لرواية الإمام في الموطأ عن والده عبد الله

الكامل، ومن الأدلة التي تثبت ذلك كون الأدارسة لم يرتكبوا أي أعمال إجرامية في حق أهل السنة كما فعل العُبيديون الشيعة الروافض.

3- نهاية الدولة:

وبالنِّسبة لنهاية الدَّولة الإدريسيَّة بصفة نهائية فقد كان سنة 375هـ/985م على يد العُبيديون الذين هزموهم في سنة 296هـ/909م فأعادوا بعث دولتهم ثمَّ هزموهم سنة 305هـ/917م ثمَّ سنة 309هـ/921م، وفي سنة 313هـ/925م مكنوا موسى بن أبي العافية المكناسي من الاستيلاء على دولتهم، وتوالت هزائمهم تباعًا إلى أن تمَّ القضاء عليهم نهائيًا سنة 375هـ/985م.

4- العلاقات الخارجية:

تأثرت سياسة الأدارسة الخارجية بوضع دولتهم الجغرافي ومذهبها الدِّيني وظروفها السياسية. ولقد تطرقنا سابقًا للحديث عن علاقة الأدارسة مع الدَّولتين المدرارية والرستمية، وسأتحدث الآن عن علاقاتها مع الخلافة العباسية بالمشرق ودولة الأغالبة بالمغرب، وكذلك علاقتها مع الخلافة الأموية بالأندلس والعُبيديِّين (الفاطميِّين) بالمغرب.

فقد كانت علاقتهم مع الخلافة العباسية علاقة عداء شديد، فالعداء الذين كان بين أبناء العمومة العباسيِّين والعلويِّين في المشرق استمر أكثر حدة لما أسَّس الأدارسة العلويِّين دولتهم في المغرب الأقصى، وقد حاول الخليفة العباسي هارون الرشيد القضاء على هذه الدَّولة الناشئة خاصةً بعد أن امتدت حدودها إلى المغرب الأوسط ولكن بُعد العراق حال دون إرسال الجيوش، ومن مظاهر هذا العداء الشديد بين الطرفين تلك الرِّسالة الخطيرة والهامَّة التي أرسلها إدريس الأوَّل إلى أهل مصر يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت ويصف التَّضحيات الغالية التي بذلوها في سبيل حقهم الشرعي ويطالبهم بتأيِّيده ومساندته، وقد أقلقت هذه الرِّسالة كثيرًا الخليفة الرشيد فسارع للتَّخلص من الإمام إدريس حيث أرسل أحد جواسيسه "سليمان بن جرير الشماخ" الذي تمكن من اغتياله بالسم، ثمَّ اغتيال راشد مولى الإمام إدريس، ومع هذا لم يستطيعوا القضاء على دولة الأدارسة وهم في أوج عزهم وقوتهم، عند ذلك عزموا على التآمر المباشر وكلفوا ولاتهم الأغالبة في

إفريقية بهذه المهمة، واستمرت العلاقات العدائية حتَّى سقوط الدَّولة نهائيًا ولم تشهد أي نوع من التَّقارب.

وفيما يخص علاقتهم مع دولة الأغالبة فمن الطبيعي أن تكون امتدادًا لعلاقات بغداد بفاس فدولة الأغالبة كانت تدين بالولاء السِّياسي والتبعية الاسمية للخلافة العباسية على الرغم مما تمتعت به من استقلال ذاتي، ولقد فرضت الظروف الجغرافية والسِّياسيَّة على الدَّولتين أن تتخذ العلاقات بينهما شكلًا عدائيًا ولكن هذا العداء لم يبلغ حد القتال وتجهيز الجيوش لوجود فاصل بينهما هو دولة بني رستم الخارجية.

وعن علاقة الأدارسة بالأمويِّين بالأندلس فقد اتسمت هي الأخرى بالطابع العدائي على العموم نتيجة العداء الموروث في المشرق بين الأمويِّين والعلويِّين، ورغم ذلك لم يحدث التَّصادم الحربي بينهما لأنَّهما يملكان عدوًا مشتركًا وهو الخلافة العباسيَّة بالمشرق وحليفتهم دولة الأغالبة بالمغرب، فكلا الدَّولتين خضعتا لسياسة الاعتراف بالأمر الواقع، واقتصرت مظاهر العداء بينهما على حيك المؤامرات والمكائد والتَّجسس وتشجيع المنتزين، وقد حرص الطرفين رغم ذلك على توطيد العلاقات الاقتصادية إذ حرص أمويو الأندلس على أن تظل أسواق المغرب الأقصى مفتوحة أمام بضائعهم فضلًا عن الفوز بنصيب من تجارة السودان الغربي عن طريق تجار الأدارسة.

وبالنِّسبة لعلاقة الأدارسة بالعُبيديِّين (الفاطميِّين) فقد كانت علاقة حرب وتصادم، على اعتبار أنَّ العُبيديِّين أسقطوا دولة الأدارسة سنة 296هـ/909م، وبإحياء الأدارسة لدولتهم تجددت المعارك بين الدَّولتين إلى أن سقطت دولة الأدارسة بصفة نهائية سنة 375هـ/985م. وعلى العموم فقد اتسمت علاقتهما بالعداء ولكن تخللتها نوع من المرونة لكون الأدارسة كانوا بين مطرقة العُبيديِّين وسندان الأمويِّين بالأندلس فقد وقفوا موقف المتردد تارةً يؤيدون العبيديِّين وأخرى يناصرون الأمويِّين حسب مقتضى الحال مستهدفين بذلك مجرد البقاء والاستمرار.